

افتوشنكو يتحدث عن فنّه الشعري

اجرت هذه المقابلة اولغا كارلايل

حينما اجريت مقابلة مع بوريس باسترناك لمجلة « ذي باريس ريفيو » عام ١٩٦٠ ، كان الامل كبيرا في موسكو بحصول انتعاش ادبي عام في روسيا . هذا الامل لم يتحقق - والاحداث التي عقت ادانة خروتشيف للفن الحديث في معرض مانيج في اواخر عام ١٩٦٢ ، وضعت حدا لهذا الامل . اما الآن ، في عام ١٩٦٥ ، فالشعور المسيطر على الحلقات الفكرية الروسية مزيج من فراغ الصبر والملل والتعب ، ومع هذا فهو لا يخلو من حدة وزخم خفيين . ويتميز المشهد الادبي بهدوء سطحي ، يعود الى التدابير المضايقة (ولكن غير الكابحة) التي تصدر عن السلطات ؛ لكن خلف هذا الهدوء ثمة رجال ذوو مواهب وعواطف متقدة ينتجون مخطوطات لا تنشر احيانا كثيرة ، لكن هذه المخطوطات لا تبقى دائما غير مقروءة ، لحسن الحظ .

في عام ١٩٦٥ ، يخبرني افتوشنكو انه ما يزال يؤمن بإمكانية التوفيق بين ماركسية متجددة وبين الاستقامة والامانة الادبية ؛ وان النظام الحالي لا يتضارب والنمو الانساني والفني . هذا الموقف موقف قلق اليوم في موسكو ، حيث المذهب الجمالي الوحيد المصرح به هو مذهب الواقعية الاشتراكية . فان يحمل المرء رأيا خاصا به يتطلب بطولة - اضحت اليوم علامة افتوشنكو المميزة . وهو يحتاج الى هذه البطولة ، لانه في الحقبة التي تلت حكم خروتشيف مباشرة لا يجابه العقائديين الدوغماتيين الرسميين فحسب ، بل يجابه ايضا الكثيرين من اتباعه الاصغر سنا منه ، الذين ينتقدون الآن هذا الزعيم ، زعيمهم لبضع سنين خلت ، لكونه غير راديكالي كفاية .

التقيت يفجينى افتوشنكو لأول مرة خلال شتاء عام ١٩٦٠ ، حينما كان يرتفع في موسكو الكثير من الاصوات الشعرية الجديدة . لم يكن قد جرى التشهير بستاين رسميا بعد ؛ وكان المرء لا يزال يصادف تماثله وصوره الشبيهة بالاقنعة هنا وهناك . ومع ذلك ، فقد كان الناس يشيخون بنظرهم عن صورته ويتجنبون ذكر اسمه . اما وجود معسكرات

الاعتقال في ظل النظام الستاليني فلم يكن يذكره احد الا في حلقات صغيرة من الاصدقاء وراء الابواب الموصدة ، ومع هذا كان يحس المرء ان الجميع منهمكون في نوع من التقصي الخاص ، في عملية سرية لفرز الحقائق عن الاكاذيب .

كان اهل الفكر يشعرون شعورا متزايدا بجو الفراغ الذي يعيشون فيه منذ امد بعيد . وفي اجتماعاتهم بي ، بدا معارفي الجدد احيانا كأنهم جثث جدار بعض مخاوفهم القديمة للمرة الاولى : الخوف من معايشة احد الغرباء ، ومن بعث الماضي ، ومن الاعراب عن آرائهم الصريحة . كان المناخ رهيبا نوعا ما - لكنه مناخ مفعم بآمال مبهمه كذلك . في ذلك الحين كان يفجيني افوتوشنكو قد ذاع صيته في حلقات موسكو الادبية ، لكن وجهه وشخصيته لم يكونا مألوفين بعد للملايين من الناس في الاتحاد السوفيتي وفي الغرب . وكنت قبيل رحلتي بزمان يسير قد قرأت بعض قصائده في مجلات ادبية روسية . كانت هذه القصائد قصائد صريحة ، تطلق فوحا خاصا من فوح الشباب - نوعا من الصحافة الشعرية تفيض بهجة وحيوية ، متحررة تماما من العبارات المبتذلة الجاهزة حول الحياة السوفييتية .

ولدى وصولي الى موسكو استفدت من معرفة والذي بالشاعر واتصلت به هاتفيا . فدعوته الى تناول الشاي معي بعد ظهر احد الايام ، كما ذكرت له ان والذي يطلب منه ديوانا من دواوينه الشعرية يحمل توقعه . وقبل افوتوشنكو دعوتي واطهر لي مودة بالغة على الهاتف ، على انني ادركت انه وجد طلب والذي ساذجا . قال : « من الواضح يا اولغا فاديموفنا انك قدمت الى موسكو منذ عهد قريب . فطبعت الدواوين الشعرية تباع وتنقد على الفور في بلادنا . وقد اختفت العشرون الف نسخة من آخر دواويني الذي يضم قصائد مختارة من شعري ، في غضون يومين . لم تبقى منها نسخة واحدة » . واضاف بحرارة : « ولكنني سأتلو عليك بعضا من شعري الجديد » .

كنت اقيم في وسط موسكو ، التي كانت آنئذ مدفونة تحت طبقة كثيفة جدا من الثلج . وكنت احتل ، في فندق متروبول القاتم الضخم ، جناحا من الغرف المفروشة على الطراز الفكتوري . وكانت جدران الغرف مكسوة بالخشب وتبدل منها ستائر ثقيلة بطريقة تليق تماما بالصيت الذي اكتسبه فندق المتروبول منذ امد بعيد بوصفه مكانا يراقب موظفوه النزلاء الاجانب وزائريهم مراقبة شديدة ، وربما يتجسسون عليهم كذلك . ولكن في اصيل اليوم الذي زارني فيه افوتوشنكو ، ما ان وصل وخلع معطفه ، ونفض نديف الثلج عن قبعة الفرو الرمادية التي كان يلبسها ، وقدم لي باقة كبيرة من اليلك النبات في الحرارة الاصطناعية ، حتى اشرق جناح غربي القامة بشكل ظاهر .

افتوشنكو شاب مديد القامة جدا ، ذو شقرة ترابية ورأس صغير يعلو جسما رياضيا

فارعا ، وعينين زرقاوين فاتحتين هزلتين ، وانف نحيف في وجه مستدير ، وعادات صريحة كانت مفاجئة في موسكو تلك الايام . جلس في الغرفة ولم يكثرث بمحيطها الكئيب ، بل راح يتكلم عن الشعر الروسي بدون ديباجة . فتكلم عن نفسه ، وعن شاعر العشرينات العظيم ، ماياكوفسكي ، ثم انتقل الى الحديث عن الشعراء السوفييت المعاصرين . ولاحظت في الحال كرمه نحو زملائه الشعراء ؛ فقد ذكر العديدين منهم ، وامتدح قصائدهم ، واستشهد بمقاطع كاملة من بعضها . قال : « ان فوزنسكي واحمدولينما هما اكثر شعرائنا اليوم وعدا بالعطاء . ان احمدولينما تسير في التراث الروسي العظيم للشاعرات ، امثال اخاتوفا وتسفيتايفا . انه تراث الشعر الغنائي العالي النقي الصافي . انها زوجتي » (قال مبتسما) « ويجب ان تلتقي بها . اما انا فانتمي ، للأسف ، الى تقليد شعري اقل عظمة وفخامة . فشعري تمليه عادة الاحداث المعاصرة ، والعواطف الفجائية - لكن هذه هي طبيعة موهبتي ... حين يحركني تأثير عميق ما ، احس بحافز لان اطلق مشاعري ولان اسكبها شعرا على الفور » . وبينما كان اقتوشنكو يتكلم ، نهض واقفا ، وراح يتحرك في ارجاء الغرفة ، ويجلس على التوالي في كل من المقاعد الوثيرة المختلفة . الى ان استقر اخيرا على الكنبه المخملية الزرقاء الغامقة ، وساقاه الطويلتان متقاطعتان ، وممدودتان بعيدا في الغرفة . غير انه ما لبث ان نهض واقفا من جديد ليلقي قصيدة من قصائده ، وهي واحدة من قصائد عدة اهداها الى ماياكوفسكي :

ما الذي حطم ماياكوفسكي ،

والقى مسدسا في يده ؟

فلنقدم بعض الحنان

له بصوته العظيم ، ونبله .

- الاحياء كثير و الازعاج

والحنان لمن باتوا في امان الموت .

في غرفة الجلوس الكبيرة - التي لم يكن يضيئها غير مصباح طاولة - كان اقتوشنكو حضورا شادا تضخمت كل حركة من حركاته في تمثيلية ظلال ضخمة على الجدران . راح يلقي الشعر ، وبروفيله المدبب على نقيض غريب مع وجهه الدائري ومع عظمتي خديه العاليتين ، ويداه الطويلتان ترقشان الاسطر باشارات عريضة من حين لآخر .لقى الشعر باندفاع مسرحي ، وصوته الجمهوري يبعث الحياة في القصائد ، مخفيا ما فيها من بعض الاحيان من ضآلة وهزلة بين طيات موجة من العواطف . كان صوته يملأ الغرفة ، وهو ينظر فوق رأسي الى بعد متخيل ، خالقا في الوهم باني في قاعة عمومية كبرى بين صفوف وصفوف من المستمعين المستغرقين المذهولين .

لقى من الذاكرة جزءاً طويلاً من قصيدة يحبها حباً خاصاً بعنوان «فتاة صغيرة بشعة» ،
للشاعر زابولوتسكي الذي يكبره سناً . وهي ، كقصيدته هو الهداة الى ماياكوفسكي ،
دعوة الى المزيد من الرفق والرأفة في الحياة اليومية . وجلس افقوشنكو ، وخيم الصمت ،
ثم تكلم ثانية في دفق جياش متزايد من التصاريح : « ان الحاجة الى اعادة الدفء الى حياة الناس
هي المهمة الاكثر إلحاحاً الملقة على عاتقنا . هذا وحده يستطيع انقاذنا ، وانقاذ الكوكب
كله . كما ان الشعب الروسي قد طال عهده بالآلام . وانه من واجبننا نحن الآن ان نفعل
شيئاً بهذا الشأن . ان نخلق مناخ رفق ورأفة ، ان ندع الشعب يتفتح ويزهر من
جديد . كيف سنعوض ابداً عن الجور والظلم ، عن الحماقة والدماء ، ان لم نبدأ الآن ؟
ليس ثمة ما يمنع هذا الازهار في مجتمعنا الشيوعي ، بل ان الامر على النقيض من ذلك تماماً ؛
على انه يتوجب علينا اولاً التغلب على مخاوفنا الداخلية ... الكثيرون من الشعراء تمكنوا
من ذلك ، ولم يعد هنالك ما يحبس الالهام فيهم : فجميع الموضوعات الكبرى في زماننا
اصبحت موضوعاتهم . اما كتاب النثر فيواجهون صعوبات اعظم . ذلك ان النثر
الروسي كابد لسنوات من الرقابة الخائفة ، في حين ان تأثير هذه الرقابة في الشعر كان
اقل وأخف وطأة لان الشعر ينتشر شفهاً بمنتهى السهولة . على ان هناك عدة كتاب نثر
يعدون باشياء عظيمة من بين ابناء جيلي : قصة دودينتسيف « حكاية العام الجديد »
تظهر بوضوح انه نضج منذ ان كتب « ليس بالخبز وحده » . ثم هناك يوري كازاكوف
الذي يجب ان تقرأه في الحال : فهو في رأي احسن كاتب نثر في الجيل الجديد . انه
يكتب في تقليد متجدد ، لكنه تقليد روسي عميق ، اعني به تقليد انطون تشيخوف :
وموضوعه الرأفة ... »

استنكف افقوشنكو عن الشروحات التفصيلية ، وتوقع مني ان افهم ، وربما ان
اشاركه اعتقاداته ، التي اعرب عنها في جل سيابة مليئة بالاستعارات القديمة الطراز .
ومع هذا ، وبالرغم من كل بلاغته ، فانه لم يهدر اي وقت في حديث هامشي او مسلي .
وخيل اليّ انه يستحوذ عليه دافع الوصول مباشرة الى الحقيقة ، وفي هذا ذكرني بعض
الشيء بصعاليك « البيتكنس » في نيويورك . قال : « لقد دخلنا عصراً جديداً . واخذنا
باسم الشيوعية نفتش عن الحقيقة - في انفسنا ، وفي الآخرين » . وازاف ، معرباً عن
اعتقاد روسي تقليدي : « وفي كثير من الاحيان نجد لها في اناس اكثر بساطة . الحقيقة
دقيقة حساسة كغرس طرية . لقد صمدت وعاشت رغماً عن شتاء قاسٍ ، وستنمو الآن » .
كان افقوشنكو مسحوراً بفكرة الانتلجنسيا الروسية القديمة ، وخاصة بما اتصفت
به من روح عالمية شاملة . قال : « على العالم ان يستعيد هذه الروح اذا كان يريد البقاء » .
وتكلم عن مولد انتلجنسيا جديدة في الاتحاد السوفيتي ، قال : « ان ذلك كأن تحاولي

الامساك بمجرى ماء في راحة يدك . ينساب معظم الماء خارجا لكن قليلا منه يبقى محفوظا في ضمة اليد . وهذا ما يحدث الآن . فنحن واولادنا سنحتفظ في النهاية بهذه الكمية القليلة من الماء ضد التيار العام — لكن التيار العام المتزايد ابدا هو بالطبع موضع اهتمامنا الاول . واننا نستمع الايمان بمستقبل روسيا من حقيقة ان الحكومة السوفييتية قد تمكنت من فتح عالم الكتب الجيدة للجماهير الشعب ... » .

خلال حديثنا كله — الذي بدا لي احيانا كنوع من المسرحيات الاخلاقية ، يتكلم افئوشنكو فيه باسم اتحاد سوفييتي دينامي مطهر بينما آخذ انا دور الغرب — كان يعود الى مشكلة اكتشاف افكار موحدة من شأنها ضمان السعادة والسلام لروسيا ولبقية العالم . وخامري شعور بانه يرغب في اسماع المثقفين الغربيين صوته عن طريقي . وكان شديد الفضول فيما يتعلق بحياة المثقفين في الغرب ، وبالحركات الاخيرة في الرسم والكتابة ، وطرح عليّ اسئلة كثيرة عن شعراء « البيتنكس » وعن رسامي المدرسة الحركية في نيويورك .

وجيء بالشاي ، وتحول حديثنا نحو الدور الخاص للشعر في روسيا الايام الراهنة . تكلم افئوشنكو عن الجماهير العظيمة المسحورة التي تصغي الى الشعراء الشباب ، وعن طبقات لمجموعاتهم تصل الطبعة الواحدة منها الى خمسين الف نسخة وتباع كلها في يوم واحد (ولا يعاد طبعا الا حسب ما تمليه « الخطة » وليس حسب ما يمليه الطلب عليها) . ولم اسمعه ابدا يتكلم عن هذا الامر بمثل البلاغة التي تكلم بها عنه في هذا اللقاء الاول الذي تناولنا فيه الشاي . ففي تلك اللحظة من التسامح السياسي المتزايد كان هو نفسه قد اخذ وزن ويقدر قوة الشعر — وبصورة خاصة قصائده هو — وقوة شخصيته . ذلك ان قوة الشعر الذي يعرب عن مشاعر الجمهور التي طال انحباسها كانت عند ذاك اكتشافا جديدا نوعا ما بالنسبة اليه : في ذلك الحين كان الشعر ، نتيجة للعدد المتزايد ابدا من حفلات القراءة العامة التي كان يقدمها هو وغيره من الشعراء الشباب ، قد ابتدأ لتوّه يحمل وعدا بالصدق في جميع انحاء روسيا : كان ذلك هو الاسفين الاول الذي يدك في نظام ضخم متمسك من الافكار وردود الفعل الجاهزة .

كان افئوشنكو في سبيل التحول الى رمز وطني : فكان التشهير بالستالينية وادانتها يدشنان على مستوى الشعر . وعند نهاية حديثي الطويل معه ، ادركت انني قد سمعت صوتا عاما مقنعا ، ناطقا بلسان جيل بكامله . فها هنا شخص اكبر من الحياة واكثر اشراقا منها ، لكنه كذلك بطل رومنتيقي تقليدي من نوع ما : فقد فلد افئوشنكو مايا كوفسكي ، وبالاحرى . قلد صورة صاغها مايا كوفسكي — هي صورة شاعر بروتاري مزده شاب من شعراء الثورة . والصفة المباشرة التوكيدية التي تطبع اسلوبه كله اعطت وزنا عظيما لكل ما

قاله ، حتى وان كان زهو وقفة متصنعة ، او لعبة متعمدة ، الى حد ما . ذلك ان
افتوشنكو يملك موهبة خاصة للارتجال في الحياة الحقيقية كما في شعره : وباستطاعته ، حين
يشاء ، ان يؤلف قصيدة حول موضوع يعين له ، في فترة بعد الظهر من يوم واحد .
اني اذكر قوة خياله وتصوره البراقة التي اظهرها في كل لقاء من لقاءاتي اللاحقة به .
ولانه عادة ما يكون محط الانتباه ، فقد كان يدرك بداهة الامكانات الدراماتيكية في
الحالات والاوضاع المختلفة ، وفي الافكار الحديثة المثيرة ، فيتلفها بنهم ، كممثل ،
كشاعر ، عازما على دمع الاحداث العابرة بطابع لا يحى ولا ينسى ، عن طريق
شخصيته . وهو يعترف بهذا الميل الى التمثيل ، وينسبه الى ميل مماثل لدى باسترناك ،
الذي « مثل حياته تمثيلا نبيلًا » : علما بان تمثيل افتوشنكو يختلف عن تمثيل باسترناك في
اي وقت كان من حيث ان سلوك الاول ينم عن مزيد من الجهد الواعي وعن مزيد من
التعمد . وفي وقت لاحق من ذلك الشتاء الثقيل في لينينغراد ، يشرب الشبان في وسط
اصدقائه ويقدم نجبا منمقا رائعا تمجيدا لبوشكين ، الذي كنا نزور مدينته : « الى
بوشكين ، الذي تفوح منه روائح الثلج والشبانيا ... » . وبعد ذلك التاريخ بعام واحد
رأيت في نيويورك في حفلة استقبال اكااديمية ، حيث القى قصيدته الخفيفة الروح التفاؤلية ،
« على دراجة » ، وبعدها اجاب على العديد من الاسئلة السياسية الشائكة ، مفحما ،
بذكائه وبدهائه الظريف ، الجمهور الوقور المعادي بعض الشيء للاتحاد السوفيتي . وفي
سيارة اجرة في موسكو خلال شتاء ١٩٦٢ الخالي من الهموم ، تلا قصيدته « اغنية
البيتنكس » . كنا اربعة ، في طريقنا الى اتحاد فنانى موسكو حيث كان صديق
افتوشنكو ، الرسام يوري فاسيليف - نتيجة للجو السياسي المتسامح المرن الذي ساد في
تلك الفترة - سيتحدث عن افكاره حول التجارب في الفن . وفعلت « اغنية البيتنكس »
فعل الكهرباء في جمهور افتوشنكو الذي يتألف من خمسة اشخاص ، بما فيهم سائق السيارة
الذي توقف هنيهة عند محاذاة الرصيف ، وذلك ، كما قال ، « كما أذوق جمال الفن تذوقا
تاما دون ان اعرض حياتكم للخطر » . وبدت القوافي الروسية غير المعقدة كثيرا ، رائعة
اذ راح يلقي القصيدة :

... القرن العشرون عقد لساننا وحيرنا .

كانت الاكاذيب ثقيلة كالضرائب .

وكبذار الهندباء البرية

تطارت الافكار بعيدة عن النسمة الحية ...

وضحكت ايدينا وهي تصفق

وابتسمت اقدامنا وتراقصت ...

رأيت افقوشنكو مرات عديدة في موسكو خلال ربيع ١٩٦٢ . وكانت قد طرأت تغييرات عظيمة على موسكو منذ زيارتي الاولى لها . فبدت الآن اكثر انشراحا وانشغالا ، وبات من الصعب التجول فيها ، فابناء موسكو يصارعون للعثور على سيارات اجرة شاعرة - وكان قد جرى تخفيض في اجرها . وخيل اليّ ان احوال الناس قد تحسنت عما كانت عليه في شتاء ١٩٥٩ - ١٩٦٠ . وخيم على المدينة جو كجو الاعياد طوال اسابيع عديدة : ففي تلك السنة صادف وقوع احتفال اول ايار (مايو) في ذات وقت الاحتفال بعيد الفصح الاورثوذكسي . وكان الطقس دافئا . وتعرضت موسكو لغزو المتسوقين من خارج المدينة . فكانت الفلاحات يحملن اكياس التسوق الممتلئة بالحاجيات المشتراة من متاجر موسكو المليئة بالسلع على انواعها - بكل ما يلزم لتحضير « الباسكا » و « الكوليتش » التقليديين لعيد الفصح . وبدت النساء كأنهن انبثقن عن اعماق روسيا ، بناديلهن وبتنانيرهن الواسعة وبوجوههن المستديرة . وكانت المناسبة مناسبة سياسية كذلك الى حد بعيد : فكننت ترى صور لينين في كل مكان ، وارتفعت في المدينة اعلام حمراء وزرقاء فاتحة لا تعد ولا تحصى . ولم يظهر ان في تصادف الاحتفالين معا اي تنافر ، بل على نقيض ذلك تماما : فمعظم الموسكوبيين كانوا يخططون لعطلة نهاية الاسبوع بحيث يستفيدون الى اقصى حد من كلا الاحتفالين معا .

اما افقوشنكو فكان ودودا ومنفتحا كعهده ابدأ ، ويتألق الآن في وهج النجاح : فكان الناطق شبه الرسمي بلسان الشبيبة المتحررة ذهنيا . وكان قد سافر الى الولايات المتحدة ، والى اوربا ، والى كوبا بوصفه مراسلا لصحيفة « برافدا » ، وفي كوبا توطدت الصداقة بينه وبين فيدل كاسترو ؛ وسرت شائعات بانّه على وشك ان يسمح له بالانضمام الى الحزب . وكان قد تم طلاقه من الشاعرة البارعة اللامعة بيلا احم دولينا ، وينعم الآن بزواج سعيد من فتاة زرقاء العينين اسمها غالبا . وغالبا اكبر سنا بعض الشيء من افقوشنكو ، وهي سمراء متزنة ذكية ذاع عنها في موسكو انها تتمتع بدوق ممتاز في المسائل الادبية .

كان افقوشنكو وغالبا قد انتقلا لتوّهما الى شقة تقوم في مجموعة كبيرة جديدة من المباني تم تصميمها خصيصا لاجراء اتحاد الكتاب وعائلاتهم . وتقع على مبعدة من وسط المدينة ، على الطريق الرئيسي الى كييف ، في منطقة جديدة سريعة النمو ، حيث تشيد مباني السكن الطوبوية العالية بجوار منازل الضواحي الخشبية القديمة . ولم تكن المنطقة قد اخذت شكلها النهائي بعد ، وكانت الشوارع المحفورة ما تزال لا تحمل اسماء لها . وداخل المباني ، كانت الشقق لا تزال بدون ارقام .

اما شقة افقوشنكو فكانت قد تمت زخرفتها على نمط خاص شائع في موسكو :

مسحة سكندنافية معاصرة وقليل من الفوكلور - دمي فخارية اوكرانية جميلة -
مترجان بقطع تبدو انها من مخلفات سنوات العشرينات ، ومقاعد مليئة بزوايا غير عملية
وبرسومات هندسية معقدة . وكان تأثيرها ، على العموم ، مبهجا وكراما مضافا .

كانت تلك الايام اياما صاخبة بالنسبة للشاعر ولزوجته : فقد كانا على وشك ان يغادرا
موسكو الى لندن في رحلة رسمية . وكانت شقتها مسرحا لحركة دائبة من الذهاب
والاياب : غالبا توضع الحقائق ، ورنين الهاتف الذي تم تركيبه مؤخرا لا ينقطع . وتمر
الاصدقاء بها لوداعها . وجاء الكثيرون ليتفرجوا على مجموعتها من اللوحات : فكان
افتوشنكو ، الفخور جدا بهذه المجموعة ، قد انتهى لتوه من تعليقها . ولاحظت انها ،
كزخرفة الشقة ، توحى بطابع يعود عهده الى العشرينات ، ومعظمها اعمال سريرية فظة
نوعا ما لرسامين من موسكو ، لكن بعضها لوحات جيدة كذلك . وكانت هناك لوحة
ضخمة حلوة للرسام نيهونوف ، تمثل رجالا يلعبون الورق ؛ ومجموعة من التصاوير للنحات
ايرنست نيزفستني ، قوية وتعبيرية (وكان نيهونوف و نيزفستني الهدفين الرئيسيين للهجوم
الرسمي في معرض مانيج في آخر ١٩٦٢) ؛ وعدة لوحات تجريدية جيدة كان افتوشنكو
قد عاد بها من كوبا .

على الرغم من هذه العجلة وافق افتوشنكو على ان اجري معه مقابلة لمجلة « ذي
باريس ريفيو » . وتناولت العشاء عند افتوشنكو وزوجته في المساء الذي عين لاجراء
المقابلة . لم يكن الظلام قد خيم حينما جلسنا لتناول عشاء يتألف من شرائح اللحم ومن
البندورة الصغيرة الناضجة التي يعتبرها افتوشنكو طعامه المفضل . وكان هناك طبق
ضخم من هذه البندورة الصغيرة ، وقد انسجمت مع الزخرفة المشرقة التي ابدعها صديق
افتوشنكو ، الفنان المتعدد المهارات يوري فاسيليف الذي استخدم ملاعق خشبية
مدهونة ومعالم اوكرانية شعبية للتخفيف من القياسات والابعاد التقليدية للمطبخ ، حيث
كنا نتناول الطعام . ومن خلال النافذة دخل الى المطبخ عبير التشيرموخا (وهو زهر
الخور الرومي الذي كثيرا ما يظهر في الشعر الروسي ، وكنت اجهل اريجيه الثقيل حتى
ذلك الربيع) . وكانت الشمس تقرب ببطء وراء منظر طبيعي من الاشجار الخضراء
ورافعات البناء الضخمة .

كان افتوشنكو وزوجته في مزاج ممتاز . واحيينا المناسبة بالشمبانيا . وهكذا كانت
المقابلة ، كالكثير من الاعمال التي يقوم بها افتوشنكو ، تتصف بشيء من الارتجال
الساحر ، وسبقها احاديث حيوية وانخاب منمقة كثيرة ، وهي جزء مهم من ولائم
الاحتفالات الروسية . واخيرا ، عندما ازيلت الاطباق والاطعمة عن الطاولة وانهمكت
غالبا بتوضيب الحقائق في الغرفة المجاورة ، انتقلت وافتوشنكو الى غرفة الجلوس .

كانت هذه الغرفة تضم مكتب الشاعر، وهو مصمم على النمط السكندري في الكثير التتميق والاتقان، بخطوط مكورة، وعليه صورة شمسية ضخمة تمثل همنغوي في اواسط عمره، وصورة اخرى تمثل كاسترو ممهورة بامضائه - صورتان لاهين ملتحيين يترأسان اجتماعنا. ومضينا نشرب الشمبانيا السوفيتية العذبة الرائقة.

رفض افوتوشكو الاجابة على تلك الاسئلة التي كانت تشغل علي تفكيري بشكل خاص في ذلك الحين، بخصوص التيارات الدولية في الادب - او العلاقات والمقارنات الممكنة بين بعض الشعراء السوفيت وجيل الشبان من الكتّاب الامريكيين. لكنه اظهر سرورا واضحا للاجابة على اسئلة اخرى، خاصة على ما اقصل منها بالفن. كانت تحيط بنا اعمال لفاسيليف و نيزفستي، وحول هذه الاعمال بالذات ابتداء افوتوشكو كلامه. وعندما تدرجنا في المقابلة، جلس الى مكتبه وراح يضرب اجوبته على الآلة الكاتبة، مقاطعا نفسه احيانا ليتلو قصيدة ما تشدد على النقطة التي اراد ابرازها وتبيانها. كان بادي الانشراح والراحة، ينهض احيانا ليمشي في ارجاء الغرفة وليسرح نظره خارج النافذة، فتتجلى في حركاته الطاقة المتململة القلقة التي تذكرتها من لقائي الاول له.

« في نظري، ان ايرنست نيزفستي هو النحات الاكثر موهبة بين النحاتين العاملين اليوم في الاتحاد السوفيتي. ان نيزفستي نحّات من طبقة هنري مور. ومع هذا، فان ايرنست ما يزال في الثامنة والثلاثين من عمره، وقد نشأ في مناخ فني روسي خالص. واعماله هي مثال ممتاز على موقف من الفن متمركز تماما لكنه مبعض باتجاه الخارج في آن معا. ان هذا الموقف يبعث البلبلة في المتفرج الغربي، لانكم تقدرون الوحدة السلسلة السطحية في الاسلوب تقديرا عاليا جدا. لكن نيزفستي هو واقعي بالمعنى السامي الجليل للكلمة. في نظري، ان الواقعية في الفن تشمل كل ما تلميه الحياة بصورة مباشرة وأمرة. على ان اعمال نيزفستي الاكثر واقعية تشتمل دائما على عنصر خيالي فانتستيكسي، على بعد في العمق، في حين ان اعماله التصويرية تحتفظ بعنصر من عناصر الواقعية. ويعجبني بيكاسو للسبب عينه: فاصطفائيته الخارجية هي في الواقع مظهر لاعلى انواع التركيز. ان بيكاسو نار، قد يمتد لهيبه في جميع الاتجاهات، لكن جوهره واحد على الدوام.

« اما فاسيليف فيملك الدافع عينه الذي يدفع بيكاسو، فهو يريد ان يحرب كل شيء - الزيت، السيراميك، المعدن، الفسيفساء، الحجر... وهو يحازف، ولا يخشى الاخفاق؛ بل انه حين يقلد الآخرين تقليدا صريحا، فانه ينجح في البقاء هو نفسه. ان طاقته تثير الدهشة. ومع انه قد لا يكون منتما الى الحيط الرئيسي العام للفن الحديث، الا انه اشبه بعقدة تمسك بهذا الحيط الذي قطع ابان عهد «عبادة الشخصية». الا ترين ان ثمة فضيلة عظيمة في ان يكون المرء عقدة، حتى وان تكن عقدة بدائية غير متقنة،

تقوم بمحاولة جسورة لجمع الاطراف المقطعة معا ؟ » (قال افنوشنكو هذا ، شاعرا انني لا اكنّ اعجابا عظيما للكثير من الرسم الطليعي السوفييتي ، المليء برموز جليلة الى حد ما ، مستوحاة من عهد السريالية) . ولما كنت ادرك ان افنوشنكو يهتم بالفن على ذلك النحو الروسي الخاص الذي يعتبر الرسم امتدادا للادب وليس علما قائما بذاته ، ورغبة مني في تجنب جدال حول الموضوع - لانه كان بيننا خلاف قديم مستمر حول موضوع الرسم - ، فقد سألته عن رأيه في مستقبل الشعر السوفييتي .

اجاب : « ان تغييرات مفرحة تتم في حياتنا في هذه الايام بالذات ، وقد باتت هذه التغييرات ملموسة في النحاء وعوالم كثيرة . ففي عالم الادب ، تتجلى هذه التغييرات اكثر ما تتجلى في الشعر . ثمة تيارات شعرية جديدة كثيرة في روسيا الآن ، وهي اشبه ما تكون بعدد كبير من الخيل تعدو ويسابق بعضها البعض الآخر ، فتقلب وتخرّب حجارة الارصفة المشوشة في تفكير الايام الغابرة ... »

« ان البعض مستمر بالطبع في التفكير بافكار حجارة ارصفت ، ولكن النظر الى الشعر الروسي اليوم بمنظار التهكم والشك يكاد يشكل جريمة في رأيي . ففي اي مكان آخر من العالم يملك الشعر ما يملكه في الاتحاد السوفييتي من وقع وتأثير ؟ وفي اي مكان آخر يعرب الشعراء عن اعظم مطامح بلدهم ؟ »

ثم اخبرني افنوشنكو عن « يوم الشعر » ، وهو مهرجان سنوي اتسع نطاقه بصورة مطردة ، وبات يتميز الآن بنشر ديوان سنوي يضم مجموعة من قصائد الشعراء المسهمين في المهرجان .

« حينما اقترح الشاعر فلاديمير لوجوفسكوي لبضع سنوات خلت ان تقام في خريف كل عام حفلة عامة لالقاء الشعر ، لم يؤمن الجميع بنجاحها ؛ لكن يوم الشعر هو الآن جزء من الحياة الروسية ، ومؤسسة فيها ، ومناسبة للاحتجاج الشعبي ... ففي هذا اليوم ، يعتلي الشعراء المناضد والحزانات في المكتبات ، ويبيعون دواوينهم الممهورة بتواقيعهم ، ويقرأون قصائدهم ، ويجتمعون بقراهم . يجري هذا في جميع انحاء البلاد ، لكنه في موسكو يتخذ نطاقا واسعا جدا . ففي ذلك المساء ، يجتمع شعراء موسكو بالقرب من تثال ماياكوفسكي ويقرأون قصائدهم ثانية ، على انهم يقرأونها هذه المرة امام جمهور ضخم يتألف من ثمانية آلاف او عشرة آلاف نسمة . ويقف المستمعون ساعات طويلة ، حتى وان كانت رياح تشرين الاول (اكتوبر) تعصف بشدة . وفي بعض الاعوام كانت تتساقط الثلوج في ذلك اليوم ، لكن الجمهور لم يكن يتفرق ؛ بل كان يظل واقفا يصغي في العاصفة . »

وحاولت ان اقول له ان انعدام وسائل اللهو الشعبي قد يفسر جزئيا وجود عدد عظيم من متذوقي الشعر .

لكن افقوشنكو احتج قائلا : « كلا ، كلا . فتلك القراءات ليست تفاهات منظمة . لا يمكن لاي نشاط فني ، غامض مغلق كالشعر ، ان يكسب عددا عظيما من الاتباع اذا لم يكن لديه شيء ناضج يقوله . اذهبي الى اية مكتبة من مكتبات موسكو ، وحاوي ان تتباعي مؤلفات اخماتوفا الشعرية ، او دواوين بيلا احمدولينا او بوريس سلوتسكي او اندريه فوزنسكي . كل ما سيفعله بائعو الكتب هو انهم سيهزون اكتافهم ... »

« برأيي ان هناك عاملين قد يفسران هذا الامر . الاول ، ان الشعراء الذين ذكرتهم منذ لحظات هم شعراء حقيقيون صادقون — لقد مضى وانقضى الى غير رجعة ذلك الزمان الذي كان فيه الناس يتعلقون زعيم البلاد عن طريق قرض الشعر ويسمون انفسهم شعراء . على انه يوجد عندنا في الاتحاد السوفيتي ، كذلك ، العديد من القراء الممتازين ، المرهفي الحس والذين يعرفون ان يميزوا بين الجيد والرديء . لا يعني هذا القول ان الشعراء الذين ذكرتهم قبل قليل (والكثير غيرهم من الشعراء المحليين الذي لن تعني اسماؤهم شيئا بالنسبة للغربيين) يكتفون انفسهم حسب ذوق القراء ، مها كان هذا الذوق راقيا رفيعا . بل على العكس ، يعمل هؤلاء الشعراء على شحذ الذوق العام ، ويقولون هذا الذوق ويوسعونه ، وهذه هي اهم وظيفة يقومون بها . وبهذه المناسبة ، اقول لك ان جميع الشعراء الذين اتكلم عنهم لا يمكن ان يكون واحدهم اكثر اختلافا عن الآخر بما هم في الواقع . فلفوزنسكي « اسلوب ذري » من نوع ما ، مليء بالبرمات واللفات الايقاعية التي تبهر الانفاس . وتتميز احمدولينا بالانضباط ، وهي صائغة كلمات مدققة ، ومع هذا فهي وجدانية غنائية ، ومن صميم زماننا . ومن الناحية الاخرى ، نجد ان بوريس سلوتسكي محروم من الدفعة الذرية كل الحرمان ، فهو نحات احجار ، شاعر عنده من الرجولة ما عند الحجار . اما مارتينوف فيمكنه ان يكون غامضا مبها ، ومخترع احجيات . وفي شعره تحتجب الافكار الفلسفية العميقة تحت قناع غنائي رشيق .

« بين الشعراء المتقدمين في السن ، يبرز الكساندر تفاردوفسكي ، بيد انه لم يعد يحركنا ويؤثر فينا الآن بالقدر الذي كان يفعل في الماضي » (تفاردوفسكي هو واحد رؤساء تحرير مجلة « نوفي مير » الادبية الفصلية ذات الميول التحررية ، ومؤلف قصيدة « تيركين في العالم الآخر » ، وهي القصيدة التهكمية المعادية للستالينية التي نشرت عام ١٩٦٣) . « انه برأيي شاعر عظيم ، لكن شعره يفتقر الى السحر — ومها يكن من امر ، فهذه هي موهبته الشعرية . ان ما حلم به ماياكوفسكي ذات مرة ، يحدث الآن تحت ابصارنا :

شيء واحد يهمني فحسب :
ان يكون هناك شعراء ،

شعراء عديدون ، ممتازون ، مختلفون !

« انه من تقاليد الشعر الروسي ان يتقصى تلك الاسئلة التي تحر كنا اكثر من غيرها وتؤثر فينا ايماء تأثير ، بدءا من التساؤلات السياسية المعقدة الى النقاط السيكلوجية الدقيقة ... لم يكن الشعر الروسي ابدا مقتصرا على الشعر الوصفي ، او السيكلوجي ، او الارشادي التهذيبي ، او الموسيقي الغنائي . (انني اتكلم الآن عن الشعراء المجيدين ليس الا ، فهم وحدهم يمثلون الشعر الروسي) . الشعر الروسي يتألف من جميع هذه العناصر ، لكنه يشتمل عادة كذلك على قدر من التفكير السياسي الجدي .

« ان جميع شعرائنا المبرزين دون استثناء يواصلون اليوم هذا التقليد . ولهذا السبب تحبهم الجماهير . ولهذا السبب تتفجر الواح زجاج النوافذ وتتكسر في قاعات الاجتماع العامة حيث تقام حفلات قراءة الشعر . ويصعب على افراد فرق المليشيا ضبط الجماهير المتشوقة لسامع الشعراء . فهذه الجماهير نبيهة عميقة ، سريعة الاستجابة ، وكثيرا ما تكون متحمسة . غير انه ليس ثمة ما هو هدام او فاضح في حفلات القراءة تلك ، كما يزعم البعض احيانا ... واذا كان هناك اناس يبدو لهم ان الاهتمام بالشعر هو مبعث للفضائح ، فاننا لن نعبأ بهم . فهذه «الفضائح» اختارها الشعب .

« لا يتألف جمهور مستمعينا من طغمة هستيرية تعيش على هامش المجتمع . بل انه يتألف من العمال ، ومن الطلاب ، ومن العلماء . ونحن الشعراء نشعر ان اهتمامهم وثقتهم بنا هي الى حد ما خطوة الى الامام باتجاه المستقبل . وسوف نحاول الانخيب املهم » .

وسألته عن معتبرهم اساتذته الادبيين . قال :

« انني احاول دائما ان آخذ كل ما يهمني من اي كان - واحاول مع هذا ان ابقى انا نفسي - كما ترين ، انا اعود الى فكرتي ، فكرة الفن الاصطفائي - ومع هذا فهو فن مركز تركيزا متينا ثابتا ، تحافظ على تماسكه الداخلي قوة شخصية المرء . ولكن لاقل ان بوشكين هو الشخص المفضل لدي في الآداب الروسية قاطبة . واحب ايضا بلوك ، وماياكوفسكي ، وباسترناك ... وقد اثر اسينين في نتاجي . جميعهم اعانوني بطرق مختلفة ، وفي كثير من الاحيان بطرق ظاهرة جليلة . ويسعدني ان اعلم علم اليقين ان بيتا واحدا من ابياتي الشعرية سيخدم شاعرا ما في المستقبل . وفي الواقع ، ان طموحي الفني هو هذا : ان اكون قادرا على كتابة مثل هذا البيت ... بهذه المناسبة ، انا احب وولت ويتمان . كما انني اميل الى بول فرلين ، بسبب الوتر الموسيقي في شعره . قد يبدو لك الامر غريبا ، لكنني كتبت قصيدة ذات مرة تحت التأثير المباشر لقصيدة « اغنية الحريف » . » .

سألته : وماذا بشأن التأثيرات الغربية المعاصرة ؟

فقال افتشونكو : « في رأبي ، ان تأثير مهنغوي هو التأثير الاقوى هنا . كما ان مؤلفات

ريمارك الباكورة تقرأ على نطاق واسع. اما سان اكروبري فلم يصلنا الا في الآونة الاخيرة، وبامكان المرء ان يجد عناصر من وحيه في النتاج السوفييتي المعاصر. وقد لاقت رواية ساليانجر نجاحا عظيما. اننا منفتحون جدا على الكتاب الغربيين، وقد نستعير اساليبهم احيانا. على ان هذه الاقتباسات لا تنجح الا احيانا، وكثيرا ما يثبت في النهاية انها عقيمة. ومن الناحية الاخرى، فانها تقضي في بعض الاحيان الى شيء اساسي، وتساعدنا على النمو. « مثال ذلك ان احد الشعراء السوفييت متأثر الى حد بعيد بالتنعيم الشعري عند جاك بريفير، لكن هذا التنعيم يتحول في شعره الى شيء جديد كل الجدة وروسي تماما. وعند فوزنسكي ثمة مزيج غريب من رمبو في قصيدته « الزورق السكران » ومن اصوات النشاز والتنافر كما في شعر الين غيزبيرغ، لكن فوزنسكي يبقى شاعرا اصيلا كل الاصلة ... »

هنا رن جرس الباب. كان قد جاء بعض الاصدقاء ليتمنوا لافتوشنكو وزوجته سفرة سعيدة، وحملوا معهم هدايا وعدة زجاجات من الشمبانيا. وكان معنى هذا وضع حد للمقابلة، ومع انه جرت بيني وبينه احاديث اخرى عديدة عام ١٩٦٢، ثم في عام ١٩٦٥، فان افتوشنكو لم يغير الرأي المعرب عنه في هذه المقابلة « الرسمية » تغييرا جوهريا. وطال مكوثنا، ومضيئا نتحدث الى ساعة متأخرة من الليل الربيعي، والنوافذ مشرعة على موسكو المعتمدة العابقة بالشذى. وتناول الحديث روسيا والغرب، والشعر والرسم. كان زائرو افتوشنكو فنانون وشعراء، وقد ابدوا جميعا ابتهاجهم بحسن حظه لانه اتيح له القيام بالرحلة؛ وادهشني ما ابداه هؤلاء الروس الشبان من توق عظيم لزيادة التبادل مع البلدان الاجنبية. والآن، وبعد مرور ثلاثة اعوام، لا اجد ان شيئا يحدث لاثاحة المجال امام الفنانين والرسامين السوفييت الاكثر موهبة للقيام بزيارات الى الخارج؛ وبدلا من ذلك، يصرار في كثير جدا من الاحيان الى ارسال كتاب عديدي الخيلة وذوي ذهنيات « رسمية » في بعثات تبادل ثقافي.

لقد حاول افتوشنكو عمدا ان يتغلب على ما في الثقافة السوفييتية من انعزالية مغلقة، وعاد المرة تلو المرة ليردد ايمانه بوجود « اسرة اناس طيبين » في جميع انحاء العالم، بصرف النظر عن ولائهم السياسية او القومية. وفي شتاء ١٩٦٢ - ١٩٦٣، شنت حملة رسمية لحثق هذا الرأي، وهو الرأي الذي يعتبر منحرفا من زاوية النظر الشيوعية. وفي سبيل نزع الثقة عن افتوشنكو في اعين معاصريه الشباب في روسيا، الذين يتمتع فيما بينهم بشعبية فائقة، استنجدت السلطات بشاب يتمتع هو الآخر باعتبار رفيع: الرائد الفضائي يوري غاغارين. فعمد غاغارين الى مهاجمة افتوشنكو ولا وطنيته المتجلية في

نشره سيرة حياته في الخارج دون استئذان اتحاد الكتّاب . ولا حاجة الى القول بان صوت الطيار لم يكن من القوة بحيث يقدر على خنق صوت الشاعر . فقد ارتفع صوت الجيل الجديد الذي يقوده افتوشنكو وسمع في جميع ارجاء الاتحاد السوفيتي ، وقد هز مشاعر الجمهور السوفيتي واطلق رعشة فيه ؛ وهذه الرعشة ما تزال تتصاعد في طول البلاد وعرضها . واصبح الشعراء الشبان ذوي شهرة دولية ، الامر الذي يظهر الى اي حد اصبح جدار الانعزالية الثقافية شيئا باليا عفا عليه الزمان .

لقد اظهر افتوشنكو شيئا آخر كذلك - شيئا غير منتظر لا في روسيا وحسب بل في اي مكان اليوم : وهو ان الشاعر الشاب المقدم ، الذي يدعو الى الحرية ، قد يكسب الآن جمهورا شعبيا من المستمعين مماثلا للجمهور الذي كان يتمتع به لورد بايرون وفكتور هوغو في ايام الرومانسية . وقوة افتوشنكو ، كقوة هذين الشعارين ، تكمن في شخصيته بكاملها ، وليس في منجزاته الادبية وحسب .

لقد ساعد افتوشنكو على اكتساب امكانية البقاء ، لنفسه ولغيره من اعضاء جيله : فلولو السنوات التي قام فيها بادائه الشعبي الحنك والمنفتح في آن معا ، لكان ربما انهار وسحق ، هو وجميع الذين امتدحهم ، في حملة ١٩٦٢ - ١٩٦٣ المضادة للامتنال في الفن السوفيتي .

ولكن ، نظراً للعالم العقائدية غير المتبدلة التي تهيمن اليوم في روسيا ، ونظرا ايضا لمحدودية افتوشنكو نفسه الفنية ، فانه غير قادر على اشباع رغبة الشعب في حرية التعبير ، وهي الحرية التي كان هو اول من دشنها واستهلها . هذا هو مصير المبتدعين ، في احيان كثيرة . فثمة في عام ١٩٦٥ جيل جديد من القراء ، اكثر تطلبا من الجيل السابق له ، وكثيرا ما يجد هذا الجيل ان افتوشنكو سطحي جدا في موضوعاته ، ومغرم جدا بصورته الخاصة ، ومستعد اكثر من اللزوم لتعديل بيت من الابيات عندما يطلب اليه رئيس التحرير ذلك .

على ان احدا ما لم يحلّ بعد محله في المسرح الادبي ، - ولا حتى اندريه فوزنسنسكي ، وهو شاعر ممتاز ينتمي الى الجيل ذاته ، كما انه صديق حميم لافتوشنكو ومنافس له في الوقت نفسه . ومع هذا فان زعامة افتوشنكو قد ابتدأت تظهر عليها علامات الافول . ففي الجو غير المستقر الذي يسيطر الآن على موسكو ، يبدو ان هناك رغبة دائمة للتزايد من جانب الشعب ، في طلب الصدق والحقيقة . ومن جانب الرسميين المسيطرين على القضايا الادبية ، ثمة خوف متزايد من هذه الرغبة .